رمز السمكة عند المسيحيّين

الأب سامي حلّاق اليسوعيّ*

دأبت الجماعات المسيحيّة في القرون الأولى على استعمال الرموز للتعبير عن إيمانها خفيةً، بسبب الاضطهاد الذي تعرّضت له. وتُبيِّن أبحاث التنقيبات الأثريّة أنّ جميع هذه الرموز، كالحَمام وغصن الزيتون والحَمَل، أُخِذَت من العهدين القديم والجديد. لكنّ المسيحيّين استعملوا أيضًا السمكة، التي لا نجد لها إشارةً رمزيّة واضحة في أيّ نصّ من نصوص الكتاب المقدّس. ومع ذلك، انتشر رسمها انتشارًا واسعًا بين مؤمني حوض البحر الأبيض المتوسّط طوال القرون الأربعة الأولى. فلِمَ ترمز السمكة؟ وما سرّ اختيارها دون كثير من الحيوانات التي ورد ذكرها عَرَضًا في الأسفار المقدّسة، كالعقرب والسلحفاة والأرنب...؟

السمك في الحضارات القديمة

لقد أبهر السمك جميع شعوب العالم القديم، لأنّه يعيش حيث يهلك الإنسان، ويموت في عالم البشر. لهذا رسمه البابليّون والكلدانيّون على تمائمهم، وعَزَوا إليه قدرات سحريّة. ويروي بطليمس هفستيانس Ptolémée Héphestion أنّ هيلانة، أميرة إسبارطة، التي تقول فيها الأساطير إنّها وُلِدَت من اتّحاد الإله زفس Zeus بالإلٰهة ليدا Léda، كانت تلبس في إصبعها خاتمًا مرصّعًا نُقِشَ على حجره رسم لسمكة. وكان

(*) كليّة الفلسفة واللاهوت اليسوعيّة - باريس.

الآشوريّون يمثّلون آلهتهم بنصفين، أعلى بشريّ وأسفل حيوانيّ، على عكس طريقة الفراعنة. وقد آمنوا بالإله أنو Anu الذي نِصْفه سمكة. وهذا شأن السومريّين. ولعلّ تأثير الأساطير القديمة مستمرّ حتّى أيّامنا في قصص عروس البحر، تلك الفتاة الرائعة الجمال، ذات القدرات السحريّة.

أمّا عن مكانة السمكة في الإيمان الوثنيّ، فإنّنا نجد في كتابات يعود تاريخها إلى القرن الثاني الميلاديّ مجموعةً من التعابير الرمزيّة، تُكتب في الحجاب لمعالجة الأمراض ودفع الشرّ. وهي تُنسب إلى كلّ حرف من الحروف اليونانيّة خصالاً سحريّة. وترمز إلى النار بحجر، وإلى الأرض بنبات، وإلى السماء بطائر، وإلى الماء بسمكة. وتُجمَع هذه العناصر بطريقة معيّنة لصنع التمائم. فعلى سبيل المثال، الحرف ألفا α، وهو أوّل الحروف الأبجديّة، يخصّ الكلام والحياة. وكلمة Αετος تعني النسر، وهي في الآن نفسه اسم نوع من أنواع السمك. لذلك تُنقَش صورة سمكة يكسوها ريش نسر على حجر التعيمة لتحمي حاملها من الحوادث التي قد تودي بحياته، ولتساعده على حسن الكلام (الشكل ١ - أطلب آخر المقال).

ولم تقدّس الشعوب القديمة السمك وحسب، بل أعطت لكلّ صنف منه خصالاً سحريّة. فهل كان لذلك تأثير في مَن تبعوا ديانة الناصريّ حتّى إنّهم جعلوا السمكة شعارًا لهم؟ للإجابة عن هذا السؤال علينا أن نبحث في منابع فكر المسيحيّين، وندرس آثارهم عن قرب. ولمّا كانت غالبيّتهم من أصل يهوديّ، سنبحث في العهد القديم، ونرى هل لهذا الحيوان مكانة خاصّة فيه.

السمك في العهد القديم

يرد ذكر السمك في العهد القديم منذ أوّل سفر من أسفاره. فالصفحات الأولى في الكتاب المقدّس تروي لنا كيف خلق الله الحيوانات المائيّة: «فخلق الله الحيتان العظام وكلّ متحرّك من كلّ ذي نفس حيّة صنّت به المياه بحسب أصنافه» (تكوين ١/ ٢١)، وباركها (١/ ٢٢) ثمّ خلق

الإنسان وسلّطه عليها: «إنموا واكثروا واملأوا الأرض وأخضعوها، وتسلّطوا على أسماك البحر وطيور السماء» (١/ ٢٨). ويتكرّر الكلام نفسه في قصّة نوح، بعد نجاته من الطوفان، مع بعض الزيادة: «وخوفكم وذعركم يكونان على جميع وحوش الأرض... وأسماك البحر، فإنّها مُسلّمة إلى أيديكم» (٩/ ٢). لكنّ هذا لا يشير إلى تمتّع السمك بمكانة خاصّة، لأنّ ذكره يأتي دائمًا إلى جانب الحيوانات الأخرى ليكون المعنى: «الخليقة بأسرها، أو جميع أنواع الكائنات الحيّة» (أيّوب ٢١/ ٨، مزمور ٨/ ٩، حزقيال ٣٨/ ٢٠). إضافة إلى ذلك، لا تُميّز نصوص العهد القديم بين أنواع السمك، كما فعلت الشعوب الأخرى، إلّا في قصّة الخلق التي ذكرناها، وقصّتَيْ يونان وطوبيّا، حيث يُشار إلى الحوت. أمّا سائر الأسفار، فإنّها تتحدّث عن السمك بوجه عامّ. لكنّ بعضها يميّز بين الطاهر منه والنجس: «كلّ ما له زعانف وحراشف ممّا في الماء، أي في البحار والأنهار، فإيّاه تأكلون. وكلّ ما ليس له زعانف وحراشف... فهو قبيحة لكم» (الأحبار ١١/ ٩-١٢).

وعلى الرغم ممّا قلناه، كانت للسمك أهمّيّة كبيرة عند قدماء اليهود. فهو من أساسيّات القوت اليوميّ. أكلوا منه حين كانوا عبيدًا في مصر، لأنّ الحصول عليه لا يتطلّب إلّا بعض الجهد لصيده، وتفنّنوا في طهيه حتّى إنّهم اشتهوه في مسيرة الصحراء بعد أن نجوا من فرعون: «مَن يطعمنا لحمًا؟ فإنّنا نذكر السمك الذي كنّا نأكله مجّانًا» (عدد ١١/ ٥). وحين استقرّوا في فلسطين، عادوا إلى تناوله، وراجت تجارته حتّى إنّ أحد أبواب أورشليم سُمّي «باب السمك» (نحميا ١٢/ ٣٩، صفنيا ١/ ١٠)، حيث أقيم له سوق أمامه. وكان الصيّادون يُحضِرون السمك من الجليل ونهر الأردنّ، والقوافل تأتي به من بلاد الفينيقيّين: «وكان الصوريّون المقيمون في أورشليم يأتون بالسمك وكلّ أنواع المبيعات» (نحميا ١٣/ ١٦). وقد اكتُشفَت في تلال الجليل منحوتات تصوّر ألواحًا خشبيّة صُفَّ عليها السمك ليُجفّف في أشعّة الشمس أو ليُملّح (طوبيّا ٦/ ٦). بهذه الطريقة تمكّن الجليليّون والفينيقيّون من تصديره ليباع في أورشليم على الرغم من بُعد المسافة.

على مستوى الإيمان، لم يكن للسمك عند اليهود أيّ رمز روحيّ، لأنّ شريعتهم تمنع تمثيله في رسم أو نحت (تثنية ٤/٨)، ولأنّه لا يُذكر في الأحداث إلّا مرّتين: حين مكث يونان النبيّ في جوف الحوت ثلاثة أيّام ثمّ خرج على شواطئ نينوى ليدعو أهلها إلى التوبة، وحين استعمل طوبيّا قلب الحوت وكبده ومرارته دواءً: «فقال له الملاك: شقّ الحوت... فمرارته وقلبه وكبده دوّاء ناجع» (طوبيّا ٦/٥). أمّا الأنبياء، فقد ذكروا السمك في جملة ما وصفوه عن العالم المستقبليّ (حزقيال ٤٧/٨-١٠)، وبعضهم استعار صورة صيده ليتنبّأ عن نتائج الخطيئة (أشعيا ٩/٨) أو العقاب الذي سينزله الربّ بالخاطئين (إرميا ١٦/١٦).

نستنتج ممّا تقدّم أنّ دور السمك في العهد القديم ثانويّ. فهل يعود استخدامه ضمن الرموز المسيحيّة إلى المسيحيّين من أصل وثنيّ، الذين وجدوا في العهد الجديد سندًا لما آمنوا به من خصال سحريّة عجائبيّة لهذا الحيوان؟

السمك في العهد الجديد

للسمك في العهد الجديد مكانة هامّة جدًّا. فقد عاش يسوع في منطقة يرتزق سكّانها من الزراعة والصيد. وكان من بين الذين اختارهم تلاميذً له أربعةُ صيّادين على الأقلّ: سمعان بطرس وأندراوس أخوه، ويعقوب بن زبدى ويوحنّا أخوه. ونقول «على الأقلّ»، لأنّ يوحنّا يخبرنا عن سبعة منهم كانوا في المركب يصيدون السمك حين ظهر المسيح لهم على شاطئ بحيرة طبريّة بعد قيامته (يوحنّا ٢١/٢-٣).

وتُبيّن لنا نصوص الأناجيل أنّ السمك هو الغذاء الأساسيّ لأهل الجليل. فحين كان يسوع يعظ الجموع في مكان قفر وقرصهم الجوع، سأل تلاميذه أن يُحضروا طعامًا، فلم يجدوا في زادهم سوى خمسة أرغفة وسمكتين (متّى ١٤/١٩). وفي مرّة أخرى، كان معهم سبعة أرغفة وبعض السمك الصغير (متّى ١٥/٣٤). ويخبرنا يوحنّا عن صبيّ يتبع يسوع وفي

جعبته زاد: خمسة أرغفة شعير وسمكتان (يوحنّا ٦/ ٨). وحين علّم الناصريّ بالأمثال، وأراد أن يشرح حبّ الله الأبويّ قال: «مَن منكم إذا سأله ابنه... سمكة أعطاه حيّة؟» (متّى ٧/ ١٠). من هذه النصوص ندرك مكانة السمك في طعام الجليليّين. فهم يحملونه زادًا للطريق بدل الجبن أو الزيتون أو أيّ نوع من أنواع الخضار، ويأكلونه مع العسل مشويًّا (لوقا ٢٤/ ٤٢-٤٣).

ويأخذ السمك أهمّيّة كبيرة حين يصير أداة تُظهر من خلالها قدرة يسوع المعجزيّة. وهذا ما نجده في الصيد العجيب (لوقا ٥/ ٤-٧، يوحنّا ٢١/ ١-٨)، وفي تكثير الخبز والسمك (مرقس ٦/ ٣٠-٤٤)، وفي دفع جزية الهيكل: «إذهب إلى البحر وألق الشصّ، وامسك أوّل سمكة تخرج، وافتح فاها تجد فيه إستارًا، فخذه وأدّه لهم عنّي وعنك» (متّى ١٧/ ٢٧). أمّا عن معنى السمك الرمزيّ، فنجده في استعمال يوحنّا لمعجزة تكثير الخبز والسمك لكي يشير إلى ما سمّاه المسيحيّون: «الإفخارستيّا»، وفي كلام يسوع لبطرس: «ستكون بعد اليوم للناس صيّادًا» (لوقا ٥/ ١٠، مرقس ١/ ١٧). لذلك رسم المسيحيّون الأوائل في بعض لوحاتهم صيّادًا يمسك بالشصّ أو الشبكة، إلى جانب مشهد المعموديّة (الشكل ٢).

معنى رمز السمكة

قلنا إنّ رمز السمكة هو أكثر الرموز المسيحيّة شيوعًا في القرون الميلاديّة الأربعة الأولى. وقد استعمله المؤمنون في جميع مبانيهم، وكتبوا عليه كتابةً باللغة اليونانيّة أو رسمًا أو نحتًا. ويشرح لنا القدّيس أوغسطينس معنى هذا الرمز ويقول: «ومن الكلمات الخمس Ἰησους Χριστός Θεοῦ Υἱός Σώτηρ (يسوع المسيح ابن الله مخلّص)، إذا جمعتم الحروف الأولى لكلماتها تحصلون على الإكتوس ιχθυς أي السمكة، التي فيها يُشار سرّيًّا إلى اسم المسيح» (*De Civit. Dei XVIII*). فلو أخذنا في عين الاعتبار الاضطهاد الذي تعرّضت له الكنيسة أيّام نشأتها، ندرك أنّ هذا الرمز كان بمثابة «كلمة السرّ» التي يتعرّف المسيحيّون بها بعضهم إلى بعض. وهي

تعبّر في الآن نفسه عن الإيمان بيسوع الناصريّ ابنًا لله ومخلّصًا.

لكنّ شرح أوغسطينس يترك أسئلة كثيرة بدون إجابة. فهو لا يعطي أيّ معلومة عن أصل هذا الرمز ونشأته، ولا الأسباب التي دعت إلى اختياره. كما أنّ الاكتشافات الأثريّة تبيّن أنّ المسيحيّين استعملوا رسم السمكة تارة ليصفوا مشهدًا من الإنجيل، وتارة أخرى ليرمزوا إلى المسيح.

نظريّات التطريز (acrostiche)

حاول كثير من علماء الآثار في القرن الماضي شرح أسباب استعمال رمز السمكة وأصوله، لكنّ نظريّاتهم جاءت ضعيفة الإسناد، وغير مقنعة. لذلك رأينا أن نستعرض أهمّها لما فيها من وجهات نظر مفيدة. وبالطبع، سنستبعد جميع أفكار الذين عزوا سبب استخدام هذا الرمز إلى تأثير حضارات هنديّة أو صينيّة، أو حتّى إلى تأثير واضح للوثنيّة في الفكر المسيحيّ، لأنّنا نعلم أنّ هذا لم يتمّ إلّا في وقت لاحق، وأنّ صدّ الوثنيّة بجميع ما فيها من تقاليد وقيَم كان الشغل الشاغل لمسيحيّ القرون الأولى.

تعتمد جميع النظريّات التي سنستعرضها تباعًا على ما نسمّيه «التطريز» وهي طريقة في الكتابة قوامها اللعب بالحروف، كانت منتشرة في عالم السحر والعرافة، في منطقة الإسكندريّة خاصّةً. لهذا اعتقد كثير من الباحثين أنّ الإكتوس هو إبداع إسكندريّ. ويعتمد التطريز على كتابة قصيدة، ثمّ تُجمّع حروف منها بطريقة معيّنة خاصّة بكلّ ساحر، للحصول على تعابير ذات معنى. ويصف شبشرون «المطرّزون» بقوله: «إنّهم يكوّنون شروخًا في أبيات الشعر فيستخرجون كلمات سريّة للعرافة».

يقول الأب مرتيني Abbé Martigny، في قاموس الماديّات المسيحيّة (*Dictionnaire des Antiquités Chrétiennes*): «... نحن نفترض أنّها (كلمة إكتوس) ظهرت أوّلًا في الإسكندريّة، حيث قام المسيحيّون الأوائل بالبحث عنها بواسطة أسلوب التطريز... ومن المؤكّد أنّ هذا الرمز انتشر في تلك المدينة انتشارًا واسعًا، حتّى إنّ إقليمنضس الإسكندريّ يوصي أبناء

دينه بحفره على أختامهم، دون أن يشرح لهم معناه. وقد ورد في مخطوط اسمه في وعود الله وبركاته *De promission. et benedict. Dei* لكاتب مجهول: «ومن شرح الإكتوس أو السمكة، استخرج آباؤنا أبيات شعر للعرافة».

ج.ب. ده روسّي G.B. de Rossi اكتشف في ديماس كاليستس Calliste (رومة) رسمًا جداريًا لسمكة على ظهرها سلّة مملوءة بالخبز الإفخارستيّ (الشكل ٣). فأعلن أنّ استعمال رمز السمكة له علاقة بالوليمة الإلهيّة التي يقيمها المسيحيّون: «إنّ السمكة التي ترمز إلى الإفخارستيّا (سرّ القربان المقدّس) لا تعني السمك المشويّ الذي أكله يسوع مع تلاميذه حين ظهر لهم على شاطئ بحيرة طبريّة، كما ورد في إنجيل يوحنّا، بل تعني السمكة الحيّة التي تشير إلى المسيح بلغة رمزيّة خفيّة، وإلى العقيدة السرّيّة الإفخارستيّة» (*De christianis monumentis* Ἰχθυς *exhibentibus*).

ويتبنّى ف. دولوني F. Delaunay أفكار ده روسّي ويحاول، بالاعتماد على دراسة نصوص العهد الجديد فقط، إثبات أنّ فكرة رمز السمكة منبعها الأناجيل. فهي تربط بوضوح بين المسيح والسمكة في كثير من المواقف. وكما أنّ السمكة التي في فمها الإستار فدّت يسوع وبطرس، إذ يفضلها دفعا الجزية للهيكل، كذلك يفدي المسيح البشر. وكما أنّ الخبز والسمك وزّعا غذاء للجموع الكثيرة، كذلك يتغذّى المسيحيّون من جسد المسيح ودمه.

آ. هاسنكليفر A. Hasenclever يستعمل الأفكار نفسها بطريقة مختلفة. ففي نظره، بدأت المسألة برسم مشهد تكثير الخبز. وهذا ما نراه في ديماس كاليستس. وبعد ذلك، جعل المسيحيّون يسطّرون الرسم، فلم يبقَ من المشهد إلّا الخبز والسمك. وبسبب الميل إلى التبسيط الشديد، الذي تجهل دوافعه، لم يبقَ إلّا السمك، ثمّ السمكة.

هـ. أشلي H. Ashlin يرى في عماد يسوع منبعًا لفكرة السمكة. ففي الماء تمّ الإعلان عنه أنّه ابن الله. ودخول الدين المسيحيّ يتمّ بالاعتماد في

الماء. فالسمكة هي رمز للمسيح وقد غمرته مياه الأردنّ في أثناء اعتماده عن يد يوحنّا المعمدان.

وفي آخر الأمر، نذكر أبحاث روبير موات Robert Mowat، التي تتناول مسألة التطريز مرّة أخرى، وتعالجها من خلال دراسة المسكوكات. ويعيد الأستاذ موات ما ذكره الأب مرتيني عن إقليمنضس الإسكندريّ، ويقول إنّ طلب حفر صورة السمكة في الأختام دون إعطاء شرح لمعنى ذلك يعني أنّ إقليمنضس جعل من الممارسة المعنويّة المنتشرة في عصره قاعدة. ولم يشعر بالحاجة إلى تبرير الأسباب، لأنّ ذلك واضح في تفكير الشعب. وهذا يؤكّد أنّ الرمز ظهر في الإسكندريّة، وانتقل إلى رومة بواسطة الجالية الإسكندريّة التي كانت تعيش هناك، وتعمل في التجارة وتمويل العاصمة بقمح مصر.

ويذكر الأستاذ موات نصًّا ورد في مرسوم الإمبراطور قسطنطين الأوّل للمسيحيّين. وقد نقل إلينا هذا المرسوم أوسابيوسُ البامفيلي Eusèbe Pamphile (الشكل ٤). ثمّ يحاول بشتّى الوسائل أن يُثبت أنّ الإمبراطور أدخل في المرسوم قصيدة تطريزيّة مسيحيّة قديمة جدًّا، نجد فيها التطريز Ἰησοῦς Χριστός Θεοῦ Υἱός Σώτηρ Σταυρός (يسوع المسيح ابن الله مخلّص، صليب)[1]. فإذا وضعنا هذه الكلمات بعضها فوق بعض، حصلنا على تطريز من الدرجة الثانية Ἰχθυς. ويقول الأستاذ موات إنّ هذه القصيدة التطريزيّة كانت معروفة منذ بداية المسيحيّة. وهي مركّبة من آيات استُلّت من العهد الجديد. لكنّ الاضطهاد أجبر المؤمنين على إخفائها، فتحوّلت إلى التطريز الأوّل. ولمّا كان الستار شفّافًا ولا يكفي لحجب مستعملي التطريز عن عيون الرقباء، استُبدل بالتطريز الثاني. ومن الكلمة، انتقل المسيحيّون إلى الشكل زيادة في التخفّي. وحين زال الاضطهاد، فقدت الصورة الرمزيّة أسباب وجودها ككلمة سرّ متداولة بين مَن يعرفونها،

(١) Cf art. IXΘΥΣ dans *Dictionnaire d'Arch. Chrét. et de Liturgie (D AC L)*, vol. VII (1927), col. 2001-2002.

لكنّها ظلّت مستمرّة فترة طويلة من الزمن بحكم العادة. . . واكتسبت معنى تصوّفيًا روحانيًا استفاض الآباء في الحديث عنه».

وبعد هذا العرض، يتناول الأستاذ موات مسألة تاريخيّة التطريز ومصدره. فكلمة خريستوس Χρειστος تحوي حرفًا زائدًا وهو الإپسيلون ε. لكنّ هذا لا يشير إلى قدم النصّ بل إلى مكان كتابته وهو مدينة الإسكندريّة. فالناس هناك تعوّدوا استعمال نوعين من التهجّيّ للكلمات. ودراسة المسكوكات تأتينا بأمثلة كثيرة على ذلك. فاسم الإمبراطور أنطونيوس يُكتب تارة ANTΩNINOY وتارة أخرى ANTΩNEINOY. وبناءً على ذلك، يعلن الأستاذ موات أنّ أصل التطريز إكتوس إسكندريّ.

دلائل التنقيبات الأثريّة

بعد استعراض هذه النظريّات، سنرى ما تكشفه لنا بعض التنقيبات الأثريّة. ولمّا كان رمز الإكتوس، رسمًا أو كتابة، واسع الانتشار في النقوش المسيحيّة، سنقتصر في عرضنا على بعض منها.

١ ـ يبيّن قاموس الأركيولوجيا واللبترجيا المسيحيّة *Dictionnaire d'Archéologie Chrétienne et de Liturgie* أنّ المسيحيّين كانوا يستعملون الأسماء المختصرة للدلالة على يسوع. وقد ظلّت هذه الطريقة مُتّبعة في فنّ الأيقونات حيث يُكتب فوق الضابط الكلّ: ICXC وهي الحروف الأولى والأخيرة لكلمات العبارة Ἰησους Χριστός (يسوع المسيح). وفي القرن الأوّل، كان يُكتب اسم يسوع إمّا بالحرف I أو بالحرفين IH، ويُضاف إليه في بعض الأحيان حرفا كلمة المسيح XP، إمّا منفصلين أو متداخلين (الشكل ٥) بحيث أطلق عليهما بعضهم خطأً اسم صليب القدّيس أندراوس. وفي مدينة رومة، وُجدَ نقشان على حجرين حلقيّين، يعود تاريخهما إلى نهاية القرن الأوّل، عليهما الحروف IHXΘ، وهي اختصار لكلمة: «يسوع المسيح إله».

٢ ـ أقدم نقش حجريّ تظهر فيه صورة السمكة نجده على حجر

تابوت في رومة لفتاة اسمها ليفيا پريميتيڤا Livia Primitiva، يعود تاريخه إلى بداية القرن الثاني الميلاديّ. ونجد فيه إلى جانب السمكة رموزًا مسيحيّة أخرى كالراعي والمرساة (الشكل ٦).

٣ ـ ومن القرن الثاني أيضًا، لدينا الكتابة على قبر مرقس أوريليوس Marcus Aurēlius (رومة)، وفيه تعلو السمكة النصّ وكأنّها صلاة افتتاحيّة، تمامًا كما يفعل بعض المسلمين، إذ يبدأون كتاباتهم بعبارة: «بسم الله الرحمن الرحيم» (الشكل ٧).

٤ ـ نقش قبر سپتيمُس ساڤيرينس Septimus Severus (رومة)[٢] يحمل صورة سمكتين وبينهما مرساة. ويعود تاريخه إلى نهاية القرن الثاني الميلادي. لكنّ هويّته المسيحيّة مشكوك في أمرها، لأنّ النصّ لا يحوي إلّا عبارات تقليديّة تُقال لجميع الأموات من مسيحيّين وغير مسيحيّين (الشكل ٨).

٥ ـ شاهِد قبر قولونس Colonus[٣] الذي يعود تاريخه إلى القرن الثالث الميلاديّ، يذكر كلمة إكتوس في آخر النصّ ويفصلها عن باقي الكلام برسم زخرفيّ (الشكل ٩).

٦ ـ ثلاث كتابات لاتينيّة يعود تاريخها إلى القرنين الثاني والثالث الميلاديّين، لا نجد فيها رسمًا للسمكة، بل كلمة إكتوس مكتوبة باليونانيّة، تارة بشكل عموديّ (كتابة پستوميوس أوثيريون Postumius Euthérion (الشكل ١٠)[٤] وتارة أخرى بشكل أفقيّ مع مسافات كبيرة بين الحروف (كتابة أوطيخيانس Eutychianus، الشكل ١١)[٥] أو نقاط واضحة (كتابة كنديداتو Candidato، الشكل ١٢)[٦].

(٢) *D A C L* VII, col. 2017.
(٣) *D A C L* VII, col. 2017.
(٤) *D A C L* VII, col. 2014-15.
(٥) *Ibid.*, col. 2016.
(٦) *Ibid.*, col. 2029.

٧ ـ ترد كلمة إكتوس في كثير من النقوش الحجريّة الإنطاكيّة (سورية وتركيا)، ويعود تاريخها إلى القرنين الرابع والخامس الميلاديّين. ففي قرية رفعادي بالقرب من جبل سمعان، حجر يحمل كتابة Ι[ησους] Χ[ριστός], θ[εου] Υ[ιός], Σ[ώτηρ] Χριστὸς ἀρχὴ τοὺ νεωκτιστου, Ετους ζφό μηνὸς ζανδικου ά[٧]. وفي خربة حصّ، نجد كثيرًا من قوائم الأبواب كُتِبَت عليها كلمة إكتوس منفصلة، أو إكتوس هلّلويا. وكذلك الأمر في دير ستيل وفريكيا. وفي السلميّة، حجر يحمل عبارة: «أيّها المسيح، اذكرنا في ملكوتك. إكتوس هو البداية والنهاية (الألفا والأوميغا)». وفي قضاء حوران، كُتِبَت كلمة إكتوس عموديًّا وأفقيًّا بشكل متداخل، فكوّنت بهذا صليبًا (الشكل ١٣).

وفي بلدة القريتين وُجِدَ حجر لمنزل مهدوم وعليه النصّ التالي: ΕἷΣ Θεός, Ἀνηγέρθη τὸ κτίσμα Σιλουάνου διὰ-ΙΧΘΥC, Ἐν ἔτει πξ́ ومعناهُ بالعربيّة: الله أحد. إرتفع بناء سلوانُس بفضل يسوع المسيح، ابن الله، مخلّص، سنة ٦٨٠= ٣٦٨- ٣٦٩م[٨]. ونلاحظ هنا كلمة Διὰ التي تعني بفضل، أو من خلال، أو بواسطة. وفي المنطقة نفسها نجد تاج عمود برزت منه أحرف الإكتوس تفصل في ما بينها زخرفة هندسيّة (الشكل ١٤).

نظريّة إلى الصواب أقرب

إهتمّت جميع الآراء التي ذكرناها بمسألة التطريز والمصادر الكتابيّة التي دفعت المسيحيّين إلى اختيار السمكة. لكنّها لم تعالج مسألتين هما في غاية الأهمّيّة.

١) لماذا كُتِبَت هذه الكلمة عموديًّا في كثير من آثار بداية القرن الثاني، ووضعَت فواصل بين حروفها وكأنّ كلّ حرف يعمل بمفرده (الشكل ١٥)؟

(٧) والمعنى بالعربيّة: يسوع المسيح، ابن الله، مخلّص، رأس الخليقة الجديدة، سنة ٤٣٩، أوّل نيسان. *Ibid.*, col. 2036

(٨) *DACL* VII, col. 2038.

٢) لماذا تُستعمل كلمة إكتوس اليونانيّة في الكتابات اللاتينيّة التي رأيناها، كما أنّ آباء الكنيسة اللاتينيّة الأوائل يذكرونها إكتوس باليونانيّة لا Piscis (السمكة باللغة اللاتينيّة)؟

هذان التساؤلان يؤدّيان إلى طرح موضوع التطريز جانبًا، والبحث عن طريقة أخرى لشرح مصادر هذا الرمز. وهنا، يمكننا العودة إلى ما قلناه عن اختصار الجماعات المسيحيّة الأولى للأسماء.

في البداية، كُتب اسم المسيح IH ثمّ IHXP. وفي سنة ٤٠ ميلاديّة، أعلن الإمبراطور المجنون قاليغولا (٣٧-٤١) نفسه إلهًا، وأمر الشعب بأن يعبدوه. وخلفه الإمبراطور قلوديوس (٤١-٤٥) الذي سمّاه الرومان: «إلهنا Deus Noster». عندئذ أضاف المسيحيّون الـ Θ، التي تُستعمل عادة لاختصار كلمة Θεος (إله)، ليعلنوا بذلك عن اسم إلههم وهويّته. وصار الاسم المختصر IHXPΘ كما ذكرنا سابقًا. وحين اشتدّ الاضطهاد أيّام نيرون ومن بعده فسبازيانس (٦٩-٧٩) الذي كبح التمرّد في فلسطين وأظهر نفسه مخلّصًا أرسلته الآلهة، شدّد المسيحيّون على الخلاص الذي بشّر به الرسل، وأعلنوا أنّ البشريّة نالته من ابن الله يسوع لا من الإمبراطور. فأضيف الحرفان الأخيران لتكون الكلمة IHXPΘUC. ولعلّ جماعة المؤمنين لاحظت في هذه المرحلة أنّه من باب التجانس يمكن حذف الـ H والـP لكي يرمز كلّ حرف إلى كلمة، وصارت العبارة إكتوس، التي تعني في الآن نفسه «سمكة». وقد تمّ هذا قبل نهاية القرن الأوّل.

وفي عهد طيطس (٨١-٩٦) الذي سمّى نفسه: «السيّد الربّ Dominus Deus» دفعت شدّة الاضطهادات سكّان رومة إلى الاستعاضة عن الكلمة بالرمز، خصوصًا وأنّ الوثنيّين يرسمون السمك على قبورهم. لهذا انتشر الإكتوس رسمًا في تلك المدينة، في حين ظلّ كتابةً بوجه عامّ في إنطاكية. وجعل الرمز يتطوّر في معانيه. فتارة يشير إلى المسيح، وتارة أخرى يعبّر عن المعموديّة أو الإفخارستيّا... وصار آباء الكنيسة يتفنّنون في وصف الصور المجازيّة Allégories للسمكة، ويؤثّرون في الفنّ ويغنّوه بالأفكار.

لا يمكننا إذًا أن نحدّد مكان استعمال الإكتوس للمرّة الأولى. لأنّ الكلمة تطوّرت في نصف قرن من الزمن. وهي فترة قصيرة جدًا بالنسبة إلى كثرة التغيّرات التي طرأت عليها، ولم تسمح للمسيحيّين الأوائل بترك آثار كثيرة تدلّنا على مراحل نموّها. ومع ذلك، نؤكّد أنّ ظهور الإكتوس تمّ في بلاد تتكلّم اليونانيّة، وعانت من الاضطهاد في وقت مبكّر. وهذا لا ينطبق إلّا على بلاد الشام وآسية الصغرى. كما أنّ الكلمة هي اختصار لعبارة «يسوع المسيح ابن الله مخلّص». وقد شاءت المصادفة أن تتوافق مع اسم السمكة باللغة اليونانيّة. فالإكتوس وليد الاختصار لا التطريز. وهو أسلوب لا زال استعماله جاريًا في أيّامنا. فحين نقول: «اليونيسكو UNESCO» نقصد بذلك منظّمة الأمم المتّحدة للتربية والعلوم والثقافة United Nations Educational, Scientific and Cultural Organization. وإذا كانت لدينا مؤسّسة تُدعى: «الشركة المتّحدة العربيّة للتجارة» نسمّيها «شمعة»، وربّما رمزنا إليها برسم شمعة مشتعلة. بهذه الطريقة نفهم لماذا حافظ الآباء على كلمة إكتوس اليونانيّة في نصوصهم اللاتينيّة. فحالها عندهم كحال «اليونيسكو» عندنا. تبقى العبارة المختصرة أعجميّة، ولا يرى أحد ضرورة لترجمتها.

الإكتوس في نصوص الآباء

قلنا إنّ آباء الكنيسة تعوّدوا أن يشرحوا نصوص الكتاب المقدّس بطريقة مجازيّة، وأن يروا في قصص العهدين الجديد والقديم علامات وإشارات تدلّ على مشروع الله الخلاصيّ. ولمّا كان رمز السمكة واسع الانتشار بين المؤمنين، عكف الوعّاظ والمبشّرون على شرح مدلولاته بطريقة مجازيّة أثّرت في الفنّ، وجعلت إيجاد شرح واحد لمعنى السمكة في الآثار المسيحيّة أمرًا مستحيلًا. لذلك سنكتفي بعرض بعض الصور المجازيّة للسمكة التي وردت في كتابات آباء الكنيسة أو في التحقيقات الأثريّة.

١ ــ السمكة ترمز إلى طبيعة المسيح البشريّة. فكثير من الآباء شبّهوا

عالمنا بالبحر: «حياتنا الحاضرة هي كالبحر» (القدّيس أوبتات Saint Optat de Milève)، «والبشر سمك يعومون فيه» (القدّيس أمبروسيوس Saint Ambroise)، والمسيحيّون «سلالة سماويّة للسمك الإلهيّ» (نقش على قبر بكتوريوس Pectorius). وحين أخذ كلمة الله طبيعتنا البشريّة صار «سمكة خرجت من حضن الأردن» (القدّيس بطرس الواعظ Saint Pierre Chrysologue)، «لأنّه كان في البداية «الكلمة عند الله»، ومن الرمز إكتوس، هذا الاسم اليونانيّ الذي يعني سمكة، سُمّي، لأنّه كان مزمعًا أن يدخل في بحر العالم» (مكسيموس التوريني). «وشاء أن يختفي في مياه الجنس البشريّ، وأراد أن يقع في شَرَك موتنا» (غريغوريوس الكبير). «وعندما أُجبرَ سيّدنا على دفع الجزية، أراد أن تكون قطعة النقود اللازمة لذلك في فم سمكة، لكي يكون الإكتوس ومزًا للإنسانيّة... ومِمّا لا شكّ فيه أنّه لم يدفع الإستار لأنّه ابنٌ لله ـ فالملوك لا يفرضون ضرائب على أبنائهم ـ بل لأنّه إنسان» (أوريجانيس). «فبالسمكة يتقدّس السمك. لأنّه، لو لم يكن المسيح إكتوس، لما قام من بين الأموات» (القدّيس سفيريان Saint Sévérien).

٢ ـ السمكة ترمز إلى عمل الله الخلاصيّ. فكلمة إكتوس تعني يسوع المسيح ابن الله مخلّص. وكثير من النقوش الحجريّة للسمكة كُتبَ عليها IXΘYC ZωNTωN أي: «إكتوس مخلّص البشر» (أو مخلّص الأحياء). وقد رأى الآباء في السمكة التي اصطادها طوبيّا من نهر دجلة ليحرّر مارة من الروح الشرّير، ويعيد البصر إلى أبيه، صورة مجازيّة واضحة لعمل يسوع الخلاصيّ. «وعن السمكة (الإكتوس) التي تعني المسيح، نقرأ في كتابات آباء العهد القديم أنّ طوبيّا أخذها من نهر دجلة، ونزع مرارتها وكبدها ليحمي امرأته سارة وينير بصر أبيه طوبيّا الأعمى. فبأحشاء السمكة طُردَ الشيطان من الفتاة سارة التي ترمز إلى الكنيسة، وزال عمى طوبيّا» (القدّيس أوبتات). «والسمكة التي حملت في فمها الإستار هي صورة للمسيح الذي بذل نفسه إكتوسًا لخلاص العالم أجمع» (مخطوط من شمال أفريقيا كاتبه مجهول). «فمَن منكم إذا سأله ابنه سمكة يعطيه حيّة؟ والمسيح

سمكة... وُضِعَ على جمر الآلام... لكنّ هذه السمكة تحوّلت في نظر اليهود إلى حيّة بحسب قول الربّ: كما رفع موسى الحيّة في البرّيّة، كذلك يُرفع الابن... فاليهوديّ يرى المسيح حيّة لأنّ العين الكافرة لا تستطيع أن ترى الله والتقوى» (القدّيس بطرس الواسطيّ). أمّا عن السمك المشويّ، فقد رأى فيه الآباء صورة للمسيح المتألّم. «لأنّه صار كالمشويّ في محنة آلامه» (غريغوريوس الكبير). «والسمك المشويّ هو المسيح المتألّم» (أوغسطينس). «وهو يقول لملوك الأجواق الملائكيّة: تعالوا إذًا نجد في السمك الضحيّة الروحيّة، ألا وهي مخلّصنا، الكاهن الأعظم» (القدّيس سفيريان). «وأعطوه قطعة سمك مشويّ وشهد عسل (لوقا ٢٤/٤٢-٤٣). فلنقدّم نحن أيضًا هذا الطعام دائمًا... لأنّ فيه إيماننا، وفيه آلام المسيح وقيامته، وفيه تعبيرًا كاملًا عن حياتنا، لأنّنا نتألّم لآلامه، ونفرح لقيامته. فنقدّم له سمكًا مشويًّا تعبيرًا عن آلامه، وشهد عسل تعبيرًا عن قيامته» (أوسابيوس الحمصيّ المزعوم Pseudo-Eusèbe d'Émèse).

٣ ـ السمكة ترمز إلى المسيح في الإفخارستيّا. فقد كتب بكتوريوس Pectorius على قبره في مقبرة أوتون Autun (رومة): «خذ الغذاء اللذيذ من ربّ القدّيسين، كُل واشرب وامسك الإكتوس بين يديك». وعلى قبر الأسقف أبرقيوس Abercius d'Hieropolis نجد النصّ التالي: «... كان الإيمان يقودني في كلّ مكان، وفي كلّ مكان أعطاني إكتوسًا لأتغذّى. سمكة من النبع العظيم الصافي، اصطادتها عذراء قدّيسة، وصارت على الدوام تقدّمها للأصدقاء ليأكلوها...». وفي كثير من الرسوم، نجد الخبز الإفخارستيّ وبجانبه السمك أو سمكة (شكل ٣). فقد رأى الآباء في معجزة تكثير الخبز والسمك، خصوصًا عند يوحنّا، إشارة إلى الإفخارستيّا. «هذا ما فعلته السمكة الكبيرة المسيح للقي تألّم، فقد شفى مريم المجدليّة وأخرج منها سبعة شياطين، وأخرج من السمكة الجزية ودفعها عنه وعن بطرس، وأعاد النور ليولس الأعمى، وأطعم من ذاته تلاميذه على الشاطئ، وقدّم نفسه إكتوسًا لكلّ العالم» (في وحود الله ونبوءاته، مخطوط من شمال أفريقيا لكاتب مجهول). «وصنع الله لتلاميذه السبعة وجبةً من

السمك الذي رآه موضوعًا على الجمر بجانب الخبز. فالسمك المشويّ هو المسيح، وهو أيضًا الخبز النازل من السماء. والكنيسة تنتمي إليه تجسّديًا لتنال نصيبها من السعادة الأبديّة» (أوغسطينس). وتبرهن الأبحاث الأثريّة على أنّ رمز السمكة الإفخارستيّ انتشر في كثير من البطريركيّات طوال القرنين الثالث والرابع. فتارة نرى الخبز والسمك على مائدة العشاء السرّيّ، وتارة نجد السمكة بجانب الخبز والخمر ـ أو تحملهما.

٤ ـ السمكة ترمز إلى المسيح مؤسِّس المعموديّة. لقد تحدّثنا كثيرًا عن القدّيس إقليمنضس الإسكندريّ، لأنّه أوّل مَن تكلّم عن السمكة رمزًا للمسيحيّين. وقد عبّر من خلال كلامه عن ارتباط الإكتوس بالمعموديّة. «ليكن لديكم إذًا خواتم تحمل صورة حمامة أو مركب تدفعه ريح شديدة أو كنّارة كالّتي كان بوليقراطس Polycrates يعزف عليها، أو مرساة كالّتي كان سيليقُس Selecus ينحتها. وإذا رأينا في أختامكم صيّادًا، نتذكّر الرسول والأولاد الذين يُخرجهم من الماء. لنمتنع عن رسم الأصنام التي يُحظّر علينا اتّباعها، أو رسم السيف أو القوس لأنّها لا تناسب الساعين للسلام، أو رسم جرّة خمر لأنّها لا تليق بمَن يمارسون ضبط النفس... كثير من الفاسدين لديهم صور أولاد أو نساء عُراة. فإذا لم يرغبوا في تنقية خيالهم بالاقتراحات الودودة، عرّضوا أنفسهم للهلاك الأبديّ»[٩]. وهكذا ارتبطت السمكة منذ البداية برسالة الصيّادين من تلاميذ المسيح. «وكما يُخرج الصيّاد السمك من البحر، تُخرجنا كلمة الله من الظلمة» (أوريجانيس). «ونحن نولد في الماء سمكًا صغيرًا بالمسيح، ولا نستطيع أن ننال الخلاص، إن لم نبقَ فيه. وهكذا يصير المختارون سلالة سماويّة للإكتوس الإلهيّ، وسمكًا صغيرًا يولد في الماء الذي ينبع من الصخرة التي هي المسيح، فيصيرون شبيهين به، ثابتين في فضائله، ويثالون من النبع الذي لا ينضب العلم والحكمة الأبديّة» (طرطليانس)[١٠]. وفي المعموديّة، «تدخل السمكة المياه

(٩) إقليمنضس الإسكندريّ: المربّي، الكتاب الثالث، الفصل ١١.
(١٠) في المعموديّة، الفصل الأوّل.

بالصلوات التحضيريّة، لكي يصير ما أسميناه ماء السمكة حوضًا» (أوبتات). «إنّ السمكة المولودة من الماء أمّت المعموديّة» (أوريليوس Optatus أسقف إلفيرا Elvire)[١١]. لهذا، دأب الفنّانون على زخرفة أجران المعموديّة بالسمك.

من السمك إلى الصليب

لقد كان الفنّ وسيلة للتعبير عن إيمان جماعة من المؤمنين. ومن خلال تتبّعنا لتطوّر رمز الإكتوس، يمكننا أن ندرك العلاقة الجوهريّة القائمة بين الواقع والشكل المرسوم، وكيف يؤثّر الواحد في الآخر. وفي القرن الخامس اختفت السمكة من الرسوم المسيحيّة، ومنع آباء المجامع في ذلك العصر استعمال الرموز، وحدّدوا قوانين للأيقونات، لأنّ الدور الذي قام به الإكتوس زال في ظلّ دولة تتمتّع بالحرّية الدينيّة الكاملة، وصارت تنظر إلى المسيح على أنّه قائد وحاكم (الشكل ١٦). وجعل المسيحيّون يستعملون الصليب الفارغ رمزًا لهم بدل السمكة تعبيرًا عن المسيح المنتصر القائم من بين الأموات لأنّهم وجدوا فيه تعبيرًا أصدق عن إيمانهم بعد أن زال الاضطهاد. وقد ظلّ هذا الرمز مستعملاً حتّى يومنا هذا.

---

(١١) De Ephesis Scholasis

الشكل ١
السمكة النسر على حجر ثمينة

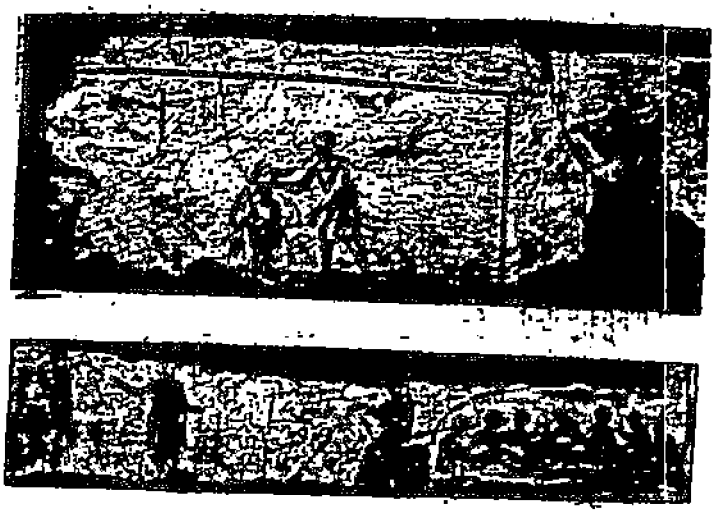

الشكل ٢
رسم جداريّ من الليماميس في رومة

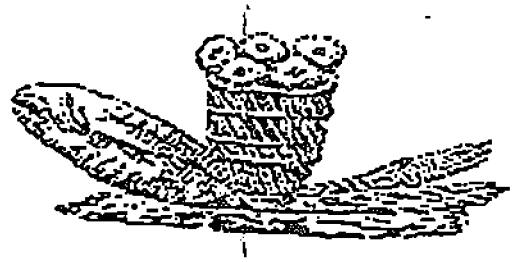

الشكل ٣
سمكة تحمل الخبز الإفخارستي

Ἰ ἀρίσει γὰρ χθὼν, κρίσεως σημεῖον ὅτ' ἔσται.
Ἠ ξει δ' οὐρανόθεν βασιλεὺς πίσιος, ὁ μέλλων
Σ άρκα περάν πάσαν κρίνει καὶ κόσμον ἅπαντα.
Ο ψονται δὲ Θεὸν μέσπες τινες καὶ ἄπιστοι
Τ ῥωτον μετὰ τὸν ἀγῶνα ἐπὶ τέρμα χρόνοιο.
Σ αρκοφόρον ψυχὴς ἐνδρῶν καὶ βήματα κρινεῖ.
Χ ρυσος δ' ἐν πυρὶ κόσμος ὅλος καὶ ἀνανδὸς, γένηται
Ρ ἡσοῖ τ' εἰδωλα ῥητοὶ καὶ πλούτου ἅπαντα.
Β λαστὴς δὲ τὸ πᾶν γῆρ, οὐρανὸν ἠδὲ θαλάσσαν,
Ι χθύων, βύβλῳ τε πύλας εἰσατὲς ἐξ ἑνὸς.
Σ ὡς τότε πίσει πιστὸν, ἐς Παλέθρου φῶς ἥξει.
Γ ὰς ἁγίους, ὑάκρους τε τὸ πᾶν εἴδεσι θαρσεῖ.
Ο πόσοι τις πρέσβις Παθεν, τότε πίνει λαλήσει.
Ε ὐφρὰν γὰρ ζοφόεντα Θεὸς φωτήρων ἀνοίξει.
Ο ῥηγόν τ' ἐκ τάφοιων ἔσται, καὶ ῥητορὶς ὑδύνων.
Ε κλείσει σέλας ἠλίοι, ἄστρων τε χορεῖαι.
Ο ὐρανὸν εἰλίξει, μήνης δέ τε φάεγος ἀλεῖται
Υ ῥώσει δὲ φάραγγας, ἀλεῖ δ' ὑψώματα βουνῶν.
Υ ῥος δ' οὐκέτι λοιπὸν ἐν ἀνθρώποισι γενεῖται.
Ι σὰ τ' ὄρη πεδίας ἔσται· καὶ πίσα θάλασσα
Θ ὶν εἰς πλοῦν ἔξι· γῆ γὰρ φραγέεται κεραυνῷ.
Ι ὼ πηγαὶ ποταμοί τε κατηλίξουσι λείψουσιν.
Σ ἀλαγὲ δ' οὐρανόθεν φανὴν κολύβητον ἀγῆγει.
Θ ρώσκει μόνος μελέων καὶ σήματα κόσμου.
Γ ρηγορέων δὲ χάος τότε δείξει γαῖα γυναῖκα.
Η ἴνεται δ' ἐπὶ βῆμα Θεοῦ βασιλῆος ἕκαστος
Ρ ίσει δ' οὐρανόθεν πανημέρι κυρίε, γὰρ τὰ θείνω,
Σ ὺμα δὲ τοι τότε πίσει βροτοὶς ἀνθέσκοντον, οἷον
Τ ὸ ἔλλιπε ἐν πιστοὶς τὸ πίρας τὸ πολλάκι πρὸ ἔστιν·
Υ ἱὸν οἰσυφέλιον ζωῆς, πρόσκυμα δὲ κόσμου.
Υ ἕσει φανέντων πιστοὶς ἐν ἀθάνατα σημεῖα.
Ρ ἔθλος πυρφόρου αὐδρείη τε πρατῆρος.
Ο ὗτος ὁ νῦν πρατηρεὺς ἐν ἀφθιτοκτίστου Θεοῦ ἡμῶν
Σ ωτὴρ, ἀθάνατος βασιλεὺς, ὁ παθὼν ἕνεχ' ἡμῶν.

الشكل ٤
نصّ أكروستيش كما نقله أوسابيوس الباميفيلي

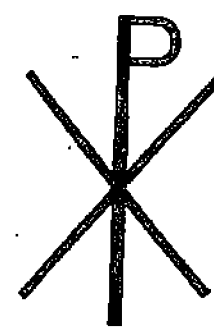

الشكل ٥

الشكل ٦
نقش قبر ليفيا پريميتيفا

D M
M·AVRELIO·ER
MAISCO
BENE MERENTI
QVEN OMNES SODALES
SVI QVERVNT

الشكل ٧
كتابة قبر مرقس أوريليوس

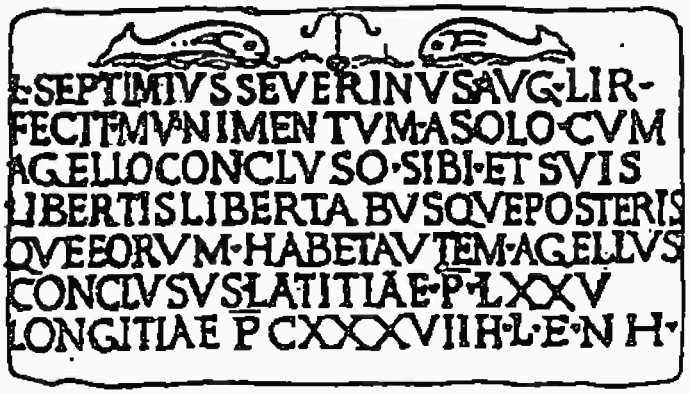

الشكل ٨
كتابة قبر سپتيمُس سافيرينس

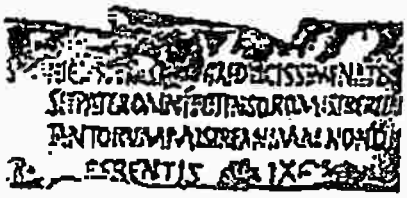

الشكل ٩
شاهد قبر قولونس

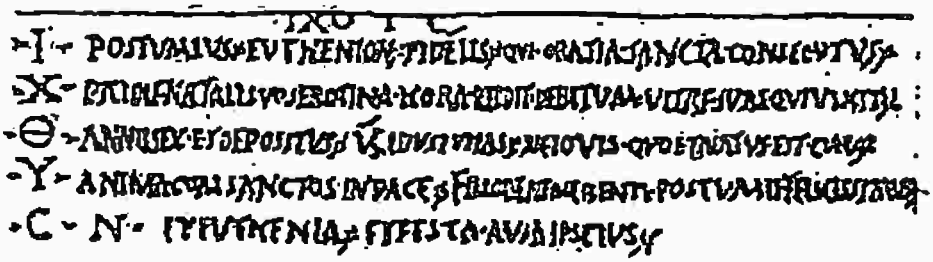

الشكل ١٠
كتابة على قبر پستوميوس

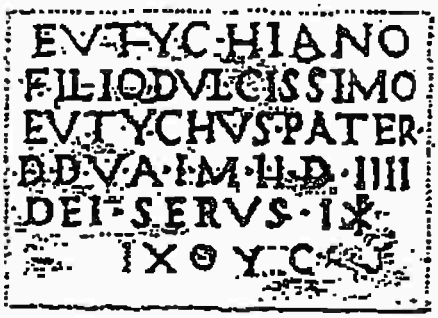

الشكل ١١
كتابة على قبر أوطيخيانس

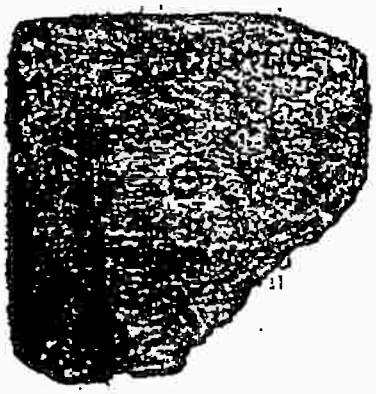

الشكل ١٢
كتابة قنيلتو

I
X
IXΘYC
Y
C

الشكل ١٣
كتابة على حجر في قضاء حوران

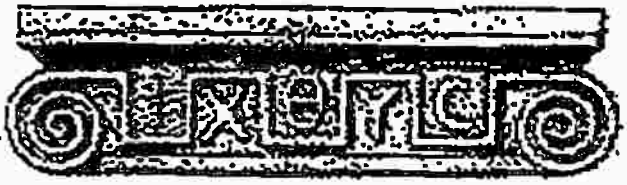

الشكل ١٤
تاج عمود في بلدة القريتين

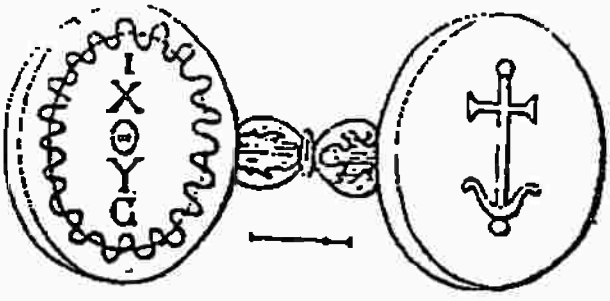

الشكل ١٥

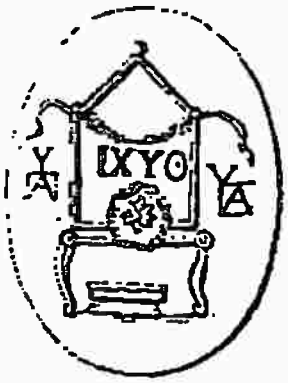

الشكل ١٦
الإكتوس على العرش